ترجمة الشيخ حسُونة النواوي الحنفي

هو حسونة بن عبد الله، أصله من نواي، قرية تابعة لملوي من أعمال أسيوط، ولد سنة ١٢٥٥، ولما ترعرع حضر إلى الأزهر، وتلقى به العلم على شيوخ وقته، وكان حضوره الفقه الحنفي على الشيخ عبد الرحمن البحراوي، والمعقول على الشيخ محمد الإنبابي، والشيخ علي بن خليل الأسيوطي، ثم درس به، وأحيل عليه تدريس الفقه بمدرسة دار العلوم ومدرسة الإدارة التي سميت بعد ذلك بمدرسة الحقوق، ودرس آخر بمسجد محمد علي بالقلعة، فكان له من مجموع وظائف هذه الدروس ما حسن به حاله، وألف في أثناء ذلك كتابه «سلم المسترشدين» في الفقه الحنفي لتلاميذ مدرسة الإدارة، ونال في شهر شعبان سنة ١٣٠٢ كسوة التشريف من الدرجة الثانية.

ثم لما شرع الخديو عباس باشا الثاني في أوائل توليته في تحسين حال الأزهر، وإصلاحه نظامه، وطريقة التدريس فيه، وإبدال بعض الكتب التي تقرأ فيه بغيرها وإدخال بعض العلوم فيه كالرياضيات، وتقويم البلدان والتاريخ وغيرها، وذلك بسعي الشيخ محمد عبده وغيره، رأى الساعون تعذر ذلك مع وجود الشيخ محمد الإنبابي شيخًا عليه، ولم يشأ الخديو عزله دفعًا للقيل والقال، فألف مجلسًا من العلماء ينظر في شئونه سمي بمجلس الإدارة، والتمس رئيسًا له يعين على إحداث النظام المطلوب، فأشير عليه بالمترجم؛ لما عهد فيه من الشهامة والصرامة، وسعى له بعض

كبار رجال الحكومة ممن سبق لهم التلقي عليه بمدرسة الإدارة فأقيم رئيسًا لهذا المجلس، وأخذ في الاستبداد بأمور الأزهر حتى انحصرت فيه كلياتها وجزئياتها، وصار هو الشيخ في باطن الأمر حتى ضجر الشيخ محمد الإنبابي، ثم اعتلت صحته فاستقال في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣١٢، وأقيل في ثاني المحرم سنة ١٣١٣.

فجاءت استقالة الشيخ على وفق مأمولهم، وأقيم المترجم شيخًا على الأزهر بدله، فكانت توليته كالشجا في حلوق أهله لأسباب؛ منها أنهم يرون فيهم من هم أكبر سنًّا، وأكثر علمًا، وأحق بالرئاسة عليهم منه، ومنها أنه جاء مؤيدًا لإدخال بعض العلوم المسماة عندهم بالجديدة كالحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان، وما هي إلا علوم قديمة اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها، وكانت تدرس بالأزهر قبل انحطاطه، وإنما نفروا منها لطول عهدهم بها[1] وحسبانها من علوم الإفرنج، وأنها ما أدخلت فيه إلا للقضاء على العلوم الشرعية أو تقليل الرغبة فيها، ومنها أنه تولى بعد الشيخ الإنبابي المشهود له بالعلم والفضل والتقوى بين الخاصة والعامة؛ بل لأنه كان سببًا في باطن الأمر على إرغامه على الاستقالة، ومنها اشتهاره بشيء من الشدة والجفاء في مخاطبة الناس ومعاملتهم مع ما داخله بعد التولية من الزهور والخيلاء، وما كان يشيعه أعداؤه عنه من ممالأته للإنكليز على هدم أركان الدين بإدخال العلوم الجديدة بالأزهر حتى كثرت القالة فيه، ويعلم الله أنه بريء مما يأفكون.

---

(١) يريد: لبعد عهدهم بها.

وحدثت في مدته حادثة الوباء التي امتنع فيها المجاورون بإغراء بعض متهوريهم من الرضوخ لأوامر الحكومة، واعتصموا بالأزهر، وقاوموا رجال الشرطة ورموهم بالأحجار حتى أصيب محمد ماهر باشا محافظ القاهرة بحجر أدمي وجهه، فأحيط بهم، ورموا بالرصاص، فجرح منهم من جرح، ثم قبض عليهم وحكم على البعض بالسجن وعلى البعض بالنفي، وأغلق رواق الشوام؛ لأن أصل الحركة كانت منهم، وهال الناس وقوع هذه الحادثة وانتصروا للمجاورين، ووجدوا منها بابًا للكلام في الشيخ ورميه بالضعف والتهاون عن الدفاع عن حرمة المسجد والمحاماة عن أهله.

ثم لما توفى الشيخ محمد المهدي العباسي مفتي القطر سنة ١٣١٥ أضيف منصب الإفتاء للمترجم، فجمع له بينه وبين رئاسة الأزهر كما كان يجمع بينهما للشيخ العباسي أحيانًا، واستمر المترجم جامعًا للمنصبين وأكثر القلوب منصرفة عنه، حتى وقع الخلاف الكبير بين جمال الدين أفندي قاضي قضاة مصر وبين الحكومة أواخر سنة ١٣١٦ بشأن إصلاح المحاكم الشرعية، واقتراح انتداب قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا في الحكم، فلما عرض الاقتراح في مجلس شورى القوانين أبي قاضي القضاة قبوله، وقام المترجم بنصرته وشد أزره، وأراد رئيس النظار مصطفى فهمي باشا مناقشته فبدرت منه كليمات عدها الوزير مهينة له، ولم يقتصر على ذلك،

بل أرغى وأزبد وخرج من المجلس مغضبًا وهو يتلو قوله تعالى: {...}[1].

وشاع بين الناس ما أقدم عليه فأكبروه منه وحمدوا موقفه فيه، لا سيما وقد سرى إلى الأذهان أن الحكومة تريد هدم الشريعة بهذا المشروع؛ فانقلب ذمهم له مدحًا، وبغضهم محبة، ولكنهم لم يغنوا عنه شيئًا؛ لأن النظار أحفظهم ما واجه به رئيسهم وحرك ذلك ما كان في صدورهم منه يوم أرادوا منع الحج احتجاجًا بالوباء واستفتوه؛ ليجعلوا فتواه عصا يتوكئون عليها كلما أرادوا منع الحج وظنوا أنه يوافقهم فأخلف ظنهم، وأفتى بعدم جواز المنع فكانت حادثته مع الوزير من أحسن ما يتوصل به إلى التخلص منه، فشكوه إلى الخديو وطلبوا منه عزله، فاستدعاه يوم الثلاثاء ٦ المحرم سنة ١٣١٧ إلى مصيفه بالإسكندرية ومعه القاضي وألان لهما القول وناقشهما في تعديل الاقتراح، وتغيير ما يخالف الشرع منه، فأصر القاضي على الامتناع، وتكلم المترجم منتصرًا له، فقال في عرض كلامه: إنَّ المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتي في أكثر أحكامها، ومهما يكن من التغيير في الاقتراح فإنه لا يخرجه عن مخالفته للشرع؛ لأن شرط تولية المفتي مفقود في قضاة الاستئناف، ثم التفت إلى القاضي وسأله: هل هو مولى من الخليفة أم من الخديو؟ فقال: من الخليفة، فقال: إذن يجب إذن القاضي لمن يريد مولانا الخديو إشراكه معه ولو كان أهلًا، ثم انصرفا. وكان كلام المترجم فيه شيء من الشدة

(١) نوى المؤلف أن يثبت الآية في الأصل فترك لها بياضًا.

تألم منها الخديو فمال لرأي نظار، فيه، ولكنه أسرها في نفسه حتى حسم نازلة القاضي بالحسنى، ثم أصدر أمره يوم السبت ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ بفصله من الأزهر والإفتاء، وإقامة ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي شيخًا على الأزهر، والشيخ محمد عبده المستشار بالاستئناف الأهلي مفتيًا للقطر، بعدما انتقل من مذهب الإمام مالك لمذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة.

ولما أشيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم وانطلقت الألسنة بمدحه والثناء عليه وتعلقت به القلوب، وأقبل الناس عليه أي إقبال، وتحققوا أن ما كانوا يتهمونه به من قبل لم يكن إلا عن محض توهم. والحقيقة أن الرجل وإن لم يبلغ شأو طبقته في العلم فلم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه، بل عرف بالعفة، وعلو الهمة، ونقاء اليد من الرشى، لولا جفاء يبدر بعض الأحيان في منطقه، وشدة فيه يراها بعض الناس غلظة ويعدها البعض شهامة لحفظ ناموس العلم، خصوصًا مع الكبراء الذين أفسدهم تملق علماء السوء، وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة.

ولم يزل المترجم عاكفًا في داره، مقبلًا على شأنه، وحببت إليه العزلة فابتنى دارًا بجهة القبة انتقل إليها وسكنها، ولم يقم ابن عمه في الأزهر طويلًا بل توفي فجأة بعد نحو شهر من ولايته سنة ١٣١٧، فولي على الأزهر الشيخ سليم مطر البشرى المالكي، ثم استقال فأقيل يوم الأحد ٢ ذي الحجة سنة ١٣٢٠، وأراد الخديو إعادة المترجم أو تولية الشيخ

محمد بخيت فلم يوافق النظار وتولى الشيخ علي بن محمد البيلاوي المالكي نقيب الأشراف على الأزهر، ثم استقال يوم الثلاثاء ٩ المحرم ١٣٢٣ فأقيل يوم السبت ١٢ منه، وصدر الأمر العالي يوم الأحد ١٣ منه بإقامة الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي، ثم استقال فأقيل بأمر صدر يوم الأربعاء ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٢٤ (ورتب للشيخ الشربيني ١٥ دينارًا مصريًّا في الشهر من الأوقاف الخيرية ليكمل مرتبه ٢٥ دينارًا)[1].

وصدر أمر آخر في ذلك اليوم بإعادة المترجم شيخًا على الأزهر؛ وهي توليته الثانية، ولكنه لم يمكث فيها طويلًا بسبب اختلال الأحوال، ونزوع المجاورين للفتن، وذهاب هيبة المشايخ، فاستقال سنة ١٣٢٧.

وأعيد إلى الأزهر الشيخ سليم البشري، ولزم المترجم داره التي بالقبة يزوره محبوه ويزورهم، ونال في توليته الأولى الوسام المجيدي من الدرجة الثانية، وجعل حينذاك عضوًا من الأعضاء الدائمين بمجلس شورى القوانين، ومن شرط هؤلاء الأعضاء أنهم لا يعزلون، ولهذا بقي المترجم به بعد عزله من الأزهر والإفتاء، حتى ألغى المجلس واستعيض عنه بالجمعية التشريعية سنة ١٣٣٢، فانفصل عنه بحكم الإلغاء.

وظل مقيمًا في داره التي بالقبة في عزلة عن الناس إلى آخر حياته، وقد أصيب بأمراض ووهن في القوى وضعف في النظر، حتى توفي صباح يوم

---

(١) هذه الجملة مزيدة في هامش الأصل بخط المؤلف بقلم الرصاص.

الأحد ٢٤ شوال سنة ١٣٤٣، ودفن في العصر بالمجاورين، تغمده الله برحمته.

obeikandl.com

ترجمة الشيخ أحمد الرفاعي المالكي[١]

اشتغل بالحضور في الأزهر على مشايخ وقته حتى تأهل للتدريس، فدرس الكتب المتداولة، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه الآن كالشيخ محمد عبده، والشيخ محمد بخيت، والشيخ أبي الفضل الجيزاوى، والشيخ محمد حسنين العدوي، والشيخ محمد النجدي الشرقاوي وغيرهم، وقد أصبح في أواخر أيامه وليس في الأزهر إلا من هم تلاميذه أو في طبقتهم، إلا الشيخ الشربيني والشيخ البشري.

وكان من عادته ألا يقطع الإقراء طول السنة، ولا يسامح في أوقات المسامحات ولا يقعده عن الاشتغال إلا المرض، فقرأ الكتب المتداولة مرارًا ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله حتى صار المستعصي منها عنده بمنزلة السهل عند غيره، وأتقن فنَّ التجويد فجعل شيخًا على المقارئ مدة طويلة. ولما أقيم الشيخ حسونة النواوي شيخًا على الأزهر في المرة الأولى ولم يجد إقبالًا من علمائه، صاحبه المترجم وتحبب إليه ولازمه في غدواته وروحاته، ثم لما انحرف الخديو عباس باشا الثاني عن الشيخ محمد عبده مفتي مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر وأراد كف يده عنه، ساعده المترجم على ذلك وأخذ في معاكسة الشيخ وتدبير المكايد له، وتنفير الأزهريين منه، وتقرب من الخديو وأكثر من الترداد على قصر القبة

---

(١) مكتوب في الهامش بخط المؤلف: «له ترجمة في اليواقيت الثمينة للبشير الظافر ص٨١».

ومداخلة الحاشية حتى حظي عنده وأقبل عليه إقبالًا عظيمًا، فلما عزل الشيخ سليمًا البشري عن الأزهر في ٢ ذي الحجة سنة ١٣٢٠، وأراد إرجاع الشيخ حسونة النواوي أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له، فعاد إلى داره جذلًا وأشاع الأمر وهيأ السكر لشرب المهنئين والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديو صرفه عن توليته وذكر عنه هنات الله أعلم بها، فعدل الخديو عن تنصيبه إلا أنه التمس لنفسه مخرجًا من وعده الذي وعده به، فأعمل بعض المقربين الحيلة واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله للتولية فقال لهم: نعم ولاني مولاي وقبلت، فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر والمشاق التي يعانيها شيخهم لإخضاعهم، ولمحوا له بأنهم لا يظنونه يقوى عليهم فقال: ومن أهل الأزهر؟ أنا أدوسهم بقدمي فقالوا: إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان العضوين بمجلس الإدارة، فهل ترضى بأن يشاركاك في الإدارة؟ وكيف يكون شأنك معهما؟ فقال: كلا لا أرضى بأن يشاركاني؛ بل أشترط لقبول التولية عزلهما وهما عندي كافران لا يوثق بهما، فاستغرب الخديو في الضحك وقال: شرطك لا يمكن تنفيذه، ونحن نريحك من رئاسة الأزهر، ونعوضك عنها بشيء نجريه عليك من الأوقاف، فأسقط في يده ورضي مرغمًا ثم صرفوه.

ثم وقعت منه في أواخر أيامه زلة، قيل: إنه تصرف في وقف بغير وجه شرعي؛ ولكن الله لطف به فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارئ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة في هذه المسألة، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه على أن توفي بعد ظهر يوم الإثنين ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ ودفن يوم الثلاثاء وأذنوا له على المآذن كالعادة في موت كبار العلماء، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة، وكان قصيرًا دحداحًا خفيف الحركة، رحمه الله تعالى وتجاوز عنه.

وله من المؤلفات حاشيته على شرح بحرق على لامية الأفعال لابن مالك، طبعت بمصر.

obeikandl.com

ترجمة الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي

هو ابن الشيخ محمد أمين، ابن الشيخ محمد المهدي الكبير الشافعي، كان جده المذكور من الأقباط، فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفني، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفني وغيرهما حتى صار من كبار العلماء، وترشح لرئاسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوي ولكنها لم تتم له، وتولاها الشنواني، وقد أطال الجبرتي في ترجمته. ثم نشأ ولده الشيخ محمد أمين عالمًا حنفيًا وتولى الفتوى بمصر زمنًا، وتوفي سنة ١٢٤٧.

وولد المترجم بإسكندرية سنة ١٢٤٣ فقرأ بها بعض القرآن، ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٥٥ فأتم حفظه، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ فقرأ على الشيخ إبراهيم السقاء الشافعي، والشيخ خليل الرشيدي الحنفي، والشيخ البلتاني وغيرهم، ثم صدر أمر إبراهيم باشا ابن محمد علي بتوليته إفتاء الديار المصرية في منتصف شهر ذي القعدة سنة ١٢٦٤ وهو في نحو الحادية والعشرين من سنيه، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير، ويقال: إن السبب في ذلك عارف بك الذي تولى القضاء بمصر، وكانت له صلة بأبي المترجم، فلما ذهب إبراهيم باشا إلى القسطنطينية ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك، وكان إذ ذاك شيخًا للإسلام وأوصاه خيرًا بذرية الشيخ المهدي، وأن يولي منهم من يصلح لمنصب أبيه، فكان همه السؤال عنهم بعد عودته لمصر، وطلب المترجم

لحضرته فصادفوه في درس الشيخ السقاء يحضر مقدمة مختصر السعد، فركب إليه وهو بين الخوف والرجاء، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم، ثم أنبأه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر، وعزل عنه الشيخ أحمد التميمي الخليلي وخلع عليه خلعة هذا المنصب، ثم عقد له مجلسًا بالقلعة حضرة حسن باشا المنسترلي والشيخ مصطفى العروسي وغيرهما، فأقروا على إقامة أمين للفتوى يقوم بشئونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه، واختاروا له الشيخ خليلًا الرشيدي الحنفي بدل الشيخ على البقلي أمين فتوى التميمي، ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ووفد الناس على داره للتهنئة، ومدحه الشعراء، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب:

عز يا عزة الحمى أن تقاسي ... بمهاة الصريم فيما تقاسي

ومنها قوله:

تب مفتي الهوى وتبت يداه ... ضل شرعي نهجه والسياسي
فدعيه يا عز عز اصطباري ... إن فتواه فتنة للناس
ولئن قلت أي فتوى البرايا ... حكمت بالنصوص دون التباس
وارتضاها الزمان قل لي وأرخ ... قلت فتوى مهديه العباسي

وهي قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيرًا فيها إلى التميمي وإلى الرشيدي أمين الفتوى الجديد:

قلت لما أن تم بدر التميمي ... واعتراه نقص لخسوف الشديد
رجع الدر بالفتاوى إلى ما ... كان فيه من المكان المشيد

فلـنعم الرشـيد يـا ابـن أمـين ولـنعم الأمـين يـا ابـن الرشـيدي

وروى الفاضل محمد أفندي التميمي في الترجمة التي جمعها لأبيه الشيخ أحمد التميمي أن سبب عزله عن الإفتاء أحقاد قديمة كانت في صدر إبراهيم باشا منه بسبب معارضته له في أمور تخالف الشرع، كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها، فلا يجد بدًّا من الإذعان بسبب إقبال أبيه محمد علي على الشيخ، فلما تخلى عن ولاية مصر وتولاها إبراهيم كان أكبر همه عزله عن الإفتاء، انتهى.

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم خصوصًا الفقه، حتى نال منه حظًّا وافرًا، وجلس للتدريس بالأزهر لإقراء الدر المختار فقرأ منه إلى كتاب الطلاق وأكمل قراءته في داره، وقرأ الأشباه والنظائر في داره أيضًا، وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم ممالأة الحكام، وحسبك وقوفه في وجه عباس باشا الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم؛ وسبب ذلك أن هذا الوالي أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده محمد علي مدعيًا أنه ورد مصر لا يمتلك شيئًا، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده إليها، ووضعه بيد أمينها المتولي شئونها، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع، ولم يحفل بوعيده وتهديده حتى طلبه فجأة إلى بنها فسافر إليها وهو موقن بالهلاك، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلاء الخلفاوي، فسافر معه لمؤانسته ومواساته، فلما وصلا قصر بنها روجع المترجم في الفتوى؛ فأصر على قوله الأول، فأمر بهما

فأنزلا إلى سفينة بخارية سافرت بهما ليلًا في النيل لنفي المترجم إلى أبي قير، واعتراه لشدة وجله زحير كاد يودي به وهو مع ذلك مصر على قوله والشيخ أبو العلاء يهوِّن عليه الأمر ويؤانسه بالكلام، إلى أن صدر الأمر بإرجاع السفينة، وأنزلا منها، وأمرا بالسفر إلى القاهرة وسلم الله، فكانت هذه الحادثة سببًا لعلو قدر المترجم في النفوس وإعظام الولاة فمن دونهم لشأنه، وتسبب منها أيضًا إقباله على الشيخ أبي العلاء المذكور، وسعيه له في المناصب التي تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك.

ثم لما كانت سنة ١٢٨٧ والمتولي على القطر الخديو إسماعيل باشا، وكان انحرف عن الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر، فأراد عزله ولكنه خشي الفتنة؛ لأنه شيء لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر، فأخذ في جس نبض العلماء وسبر غورهم في ذلك، فهوَّن عليه الشيخ حسن العدوي الأمر، وأوضح له أنه وكيل الخليفة وللخليفة أن يعزل من يشاء، والوكيل له ما للأصيل، فسر الخديو وبادر إلى عزل الشيخ العروسي في أواخر السنة المذكورة، وكان العدوي يطمع فيها، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه فأخلف الله ظنه، وصدر أمر الخديو في منتصف شوال بتولية المترجم والجمع له بين منصب الإفتاء ومنصب الأزهر، فاستدعاه وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد فباشر شئون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل، وكان أول ما صدر منه سعيه لدي الخديو بإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات التي أبطلت زمن عباس باشا، فوافقه على ذلك وأعيدت المرتبات الشهرية والسنوية، ثم استصدر أمرًا

من الخديو بوضع قانون للتدريس، فأجابه إلى ذلك ووضع قانون الامتحان، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون؛ بل كان من تأهل للتدريس تصدر له، فيحضر أول درس له شيوخه وغيرهم من كبار العلماء، ويناقشونه فإن وجدوه أهلًا أقروه وإلا أقاموه.

ولم يزل المترجم سائرًا في طريقه المحمود، ملحوظًا بعين التبجيل من الحكام، وبين الخاص والعام، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة، ورأى فيه العرابيون أنه ليس بالرجل الذي يوافقهم ويساعدهم في مطالبهم، فكان من جملة ما طلبه عرابي باشا من الخديو لما زحف بالجيش على قصر عابدين عزل المترجم من الأزهر، فعزل عنه في المحرم سنة ١٢٩٩، وتولى عليه بدله الشيخ محمد الإنبابي، وانفرد هو بالإفتاء، ثم تجسمت الفتنة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو، وكتبوا قرارًا بذلك جبروا العلماء والوجهاء على التوقيع عليه، فامتنع المترجم من موافقتهم على ذلك، وقال لحامل القرار: أنا لا أوقع بيدي، فإذا كان في الأمر غصب، فإن خاتمي معي خذوه ووقعوا أنتم بأيديكم كما تشاءون. فانحرف عنه العرابيون وضايقوه وبثوا عليه العيون حتى احتجب في داره التي على الخليج بالقرب من مدرسة الفخري المشهورة بجامع البنات، وتحامي الناس عن زيارته، وصار لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد إليه، ومرت عليه أيام وليال قضاها في انتظار حتفه في كل ساعة تمر به، حتى كانت الهزيمة الكبرى على العرابيين، وتشتت شملهم، وعود الخديو إلى مقر ملكه في ١٢ ذي القعدة من تلك السنة، فذهب المترجم

فيمن ذهب للسلام عليه وتهنئته بالظفر، ودخل مع العلماء فخصه الخديو بترحيب ورعاية زيادة عمن معه من العلماء وتقديرًا لحسن بلائه في الإخلاص له مدة الفتنة، ولحظ الشيخ الإنبابي شيخ الأزهر إغماضًا عنه من الخديو، وخشي أن يعزله ليعيد العباسي، فقال: بيدي لا بيد عمرو، واستقال بعد أيام، فأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ منه بإعادة المترجم إلى الأزهر، علاوة على منصب الإفتاء الذي بيده، ونصه موجهًا لرئيس النظار:

(إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الإنبابي من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر، ووثوقنا بفضائل وعالمية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسي المهدي، قد اقتضت إرادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلًا، علاوة على وظيفة إفتاء السادة الحنفية المتحلي بها من السابق، وصدر أمرنا للمومي إليه بذلك في تاريخه، ولزم إصدار هذا لدولتكم إشعارًا بما ذكر في ١٢ أكتوبر سنة ٨٢ الموافق ١٨ ذي القعدة سنة ٩٩).

فتمت للمترجم رئاسة الأزهر رغم أنف كثيرين، فإن بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهادي نجا الإبياري، وكتبوا كتابة بذلك وأخذوا يوقعون عليها ويطوفون بها على العلماء، فلم يشعروا إلا وقد فاجأهم الأمر بإعادة المترجم، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح.

ثم استمر المترجم جامعًا للمنصبين قائمًا بشئونهما أتم قيام، حتى كانت سنة ١٣٠٤ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل

محمد باشا السيوفي، وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم في أغلب الليالي، فيتكلمون في الأمور السياسية ويظهرون أسفهم من وجود الإنكليز بمصر، وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون، وغير ذلك من هذه الشئون، فحنق الخديو وأرسل لمحمد باشا السيوفي بالحضور فلم يجدوه؛ بل وجدوا أخاه أحمد باشا، فحضر إلى القصر وقابل الخديو، فوبخه توبيخًا شديدًا وقال له: يخيل لي أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية، فتبرأ من ذلك وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والائتناس، ثم قابل الخديو المترجم في إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كعادته؛ بل قال له وقت الانصراف: يا حضرة الأستاذ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه، ولا يتدخل فيما لا يعنيه ويجمع الجمعيات بداره. فلم يجبه المترجم إلا بقوله: أطال الله عمر أفندينا وأدام عليه العافية، إنني ضعفت عن حمل أثقال الأزهر، فأسأله أن يعفيني منه. ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الكلام، بل كان يظنه يجيب بجواب يصرف المسألة بسلام، فغضب وقال مستفهمًا: ومن الإفتاء أيضًا؟ فقال له: نعم يا أفندينا ومن الإفتاء أيضًا. ثم انصرف.

ولم يكن المترجم ممن يعزب عنهم أن مثل هذا السبب لا يدعو إلى الاستقالة، وخصوصًا أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمني، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية، واستدعى الأمر طلب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها، فامتنعت عن الأسفار محتجة

بعدم جوازه في الشريعة، واستفتى المترجم في النازلة، فأفتى بعدم الجواز وشدد في المسألة، فشكا رئيس النظار للخديو وأوضح له أن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاة معارضًا لأحكام القضاء، ويقال: إنه طلب منه إما أن يقيله من الوزارة أو يعزل المترجم. فلما قال الخديو للمترجم ما قال تيقن أن المراد عزله فاستقال. فأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثاني من السنة المذكور بإعادة الشيخ محمد الإنبابي للأزهر، وإقامة الشيخ محمد البناء للإفتاء.

وبقي المترجم بداره التي على الخليج، واشتغل بإصلاح قسم منها تشعث فأعاده إلى رونقه الأول، وصبغ حيطانه بالأصباغ، وهو القسم المطل على الخليج، وصار يمضي وقته بالنظر في شئونه الخاصة والاشتغال بالعلم، إلى أن أُعيد إلى الإفتاء فقط في[1].

فبقي به إلى وفاته، وأصيب في آخر آيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته، ثم تعافى قليلًا وصار يخرج في عجلته للتنزه بدون فرجية بل بعباءة بيضاء من الصوف، وأشير عليه بالإقامة بحلوان لجفافها، فانتقل إليها وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئًا، فعاد لداره بالقاهرة، ووافته منيته في الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ عن اثنتين وسبعين سنة، بعد أن لازمه المرض نحو أربع سنوات، فأذن له على المآذن، وحزن الناس لموته حزنًا شديدًا، وتكاثرت الجموع على داره

(١) نوى المؤلف أن يثبت التاريخ، فترك له بياضًا.

لتشييع جنازته، فقيل: إن عدد المشيعين، بلغ نحو أربعين ألفًا، والمصلين عليه نحو خمسة آلاف، ثم دفن بقرافة المجاورين في زاوية الأستاذ الحفني جنب أبيه وجده، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم في رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلي نزيل القاهرة، وسماها «المراثي الموصلية في العلماء المصرية»، لأنه أضاف إليها ما رُثي به الشيخ عبد الرحمن الرافعي مفتي الإسكندرية، والشيخ سليم القلعاوي شيخ مسجد القلعة، والشيخ محمد المغربي المتوفون هذه السنة أيضًا.

وكان المترجم رحمه الله ربعة إلى الطول، مليح الوجه، منور الشيبة، معتدل القامة، ذا هيبة ووقار، مات عن ثروة طائلة وولدين هما الشيخ عبد الخالق المهدي، والشيخ أمين، ماتا بعده الواحد تلو الآخر. ولم يؤلف من التآليف سوى مجموع فتاواه الذي سماه (الفتاوى المهدية في الوقائع المصرية) طبع بمصر سنة ١٣٠١ في ثمانية أجزاء كبار. وعاش في عز وتبجيل مدة حياته، وتولى الإفتاء مدة إبراهيم باشا، وعباس باشا الأول، وسعيد باشا، وإسماعيل باشا، وتوفيق باشا؛ أي أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ إلى سنة ١٣٠٤ لم يعزل فيها، فلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع، وسبب ذلك أنه تولاه وهو صغير والعيون شاخصة إليه، فكان لا يفتي فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير؛ فحصلت له بذلك ملكة فيه حتى صار معدوم النظير، لا يجاريه مجار في هذا المضمار، وأضيف إلى ذلك ما كان عليه من التقوى والتشدد في أمر الدين، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لا تزيده إلا رفعة في عيونهم؛ لعلمه

أنه لا يريد إلا نصرة الحق، فأحبوه وأغدقوا عليه بالإنعام، ومن مواقفه غير ما ذكرناه أن الخديو إسماعيل باشا أراد مرة أن يستولي على الأوقاف الأهلية ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم، فاستفتاه في ذلك فتوقف، وأفتاه بعضهم بالجواز، فتكدر منه وجمع بينه وبين مخالفيه، فناظرهم وفاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل في الحادثة وأكثروا من الجلبة، ولم يقتصر الولاة على مشاورته في الأمور الدينية المختصة بمنصبه؛ بل كانوا يستشيرون في غيرها من معضلات الأمور، لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأي، حتى إن إسماعيل باشا لما عزل عن مصر قال لولده توفيق باشا فيما أوصاه به: احتفظ يا بني بالشيخ المهدي؛ فإنه رجل لا نظير له. وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة، ولم يكن فيه ما يشينه سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الإمساك والتقتير، ويضعون عليه النوادر الخارجة عن حد المعقول، والمعروف عنه المشاهد للقاصي والداني أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد، لا تخلو مائدته يومًا عنهم، وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة، ويفرقها على المستحقين، رحمه الله رحمة واسعة، وأكثر في الأمة من أمثاله.

وكان حائزًا لكسوة التشريف من الدرجة الأولى، ومنحه الخديو عباس باشا الثاني الوسام العثماني الأول في ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الإنبابي، وقاضي القضاة جمال الدين أفندي؛ وسبب ذلك أن السيد توفيقًا البكري نقيب الأشراف سافر في هذه السنة إلى دار السلطنة، وتوصل بمساعدة الشيخ أبي الهدى الصيادي إلى مقابلة السلطان

عبد الحميد، فأنعم عليه بهذا الوسام وبرتبة قضاء عسكر الأناضول، فلما بلغ مسامع الخديو أحب أن لا يكون ممتازًا عن كبار الشيوخ؛ وهم القاضي والمفتي وشيخ الأزهر، فأنعم عليهم بهذا الوسام وأرسل إلى السلطان ملتمسًا الإنعام على المفتي وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول، وعلى القاضي برتبه قضاء عسكر الروملي؛ لأنه كان حائزًا لرتبة الأناضول، لكن طلبه لم يصادف قبولًا.

وأحيل على المترجم قديمًا أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون في ولايات القطر ومراكزه، فكان يختار ذوي الكفايات ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة، ويحامي عنهم لدى الحكام، ويشد أزرهم، فحصل له بذلك مقام لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب، وقصدوه ووجهوا وجوههم شطر داره، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى في تنصيبهم، ولو كان ممن يمد اليد بجمع من هذا الوجه شيئًا كثيرًا.

ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطًا بلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برئاسة وكيلها؛ إذ ذاك بطرس غالي باشا، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأَبَى.

وكان له في المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى، وتروى عنه مواقف في ذلك؛ منها: أن الشيخ مصطفى العروسي مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو إسماعيل باشا أمرًا بنفي الشيخ حسن العدوي إلى إسنا، وكاد ينفذ فيه لولا أنه استغاث بالمترجم، فقام يناصره وذهب للخديو مستشفعًا، ولجَّ وألحَّ حتى عفي عن الشيخ.

ترجمة السيد علي الببلاوي المالكي

هو علي بن محمد بن أحمد المالكي الحسني الإدريسي من ببلاو؛ قرية تابعة لعمل ديروط الشريف التابعة لمديرية أسيوط، ولد بها في شهر رجب سنة ١٢٥١ ونشأ بها؛ فحفظ القرآن ومبادئ العلوم وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ فقرأ به على شيوخ وقته؛ كالشيخ محمد عليش، والشيخ منصور كساب، والسيد محمد الصاوي، والشيخ علي مرزوق، والشيخ إبراهيم السنجلفي، والشيخ أحمد الإسماعيلي، والشيخ محمد الإنبابي، والشيخ علي بن خليل الأسيوطي، وكان له به نوع اختصاص في الحضور، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونة النواوي، فكانا يسكنان معًا، ويحضران معًا الدروس إلا في درس الفقه، فإن المترجم كان مالكيًّا والشيخ حسونة حنفيًّا، ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس فدرس بالأزهر والمسجد الحسيني الكتب المتداولة، وفي سنة ١٢٨٠ سافر للحجاز فحج، ثم استخدم بدار الكتب الخديوية بالقاهرة مغيرًا، حتى كانت الثورة العرابية، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين في المناصب الكبيرة فساعده صديقه ومريده محمود سامي باشا البارودي على إقامته ناظرًا على هذه الدار سنة ١٢٩٩، فتمت له نظارتها بعدما سعي كثيرون لها فلم يوفقوا.

ثم لما هدأت الأمور وأطفئت الفتنة كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين للعلم بأنه من صنائع البارودي؛ ولكن الله سلمه ولم يشأ

الخديو أذاته لاشتهاره عنده بالصلاح والتقوى والبعد عن الفتن، فاكتفوا بفصله من دار الكتب وجبروا خاطره بالخطابة في المسجد الحسيني، ثم جعل شيخًا لخدمة هذا المسجد في ثاني صفر سنة ١٣١١. ولما غضب الخديو على السيد توفيق البكري نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره بالاستقالة من النقابة فاستقال، سعى للمترجم صديقه ورفيقه في الحضور الشيخ حسونة النواوي، وكان إذ ذاك رئيسًا لمجلس إدارة الأزهر قبيل إقامته شيخًا عليه، فقبل الخديو منه وأقام المترجم نقيبًا للأشراف في ٦ شوال سنة ١٣١٢ فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية، وصار يصرف الاستحقاقات في أوقاتها، وسئل في رئاسة الخدمة بالمسجد الحسيني، فقال: إن كانت النقابة تمنعني من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها. فأبقي كما كان.

وأقام المترجم في النقابة نحو ثماني سنوات يجدد من معالمها ويحيي ما درس منها، حتى نقل منها شيخًا إلى الأزهر، وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذي الحجة سنة ١٣٢٠، وأراد الخديو إعادة الشيخ حسونة النواوي أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعي فلم يوافق النظار على ذلك، فرشح الشيخ أحمد الرفاعي المالكي وأعلمه بذلك، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت، ثم سعى الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة المؤيد، ومن أكبر المقربين من الخديو للشيخ أمين المهدي ابن العلامة محمد المهدي العباسي فردَّ عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم

توليته أمورًا قبل الآن، فأجاب بأنه وإن كان كذلك فهو من بيت علم وغنى، تربى في نعمه فلا تطمح نفسه لشيء مما في الأيدي، وتدربه على الأمور قريب مدرك، فرضي الخديو به، ولكن النظار لم يوافقوه عليه لأمور نقمها عليه ناظر الحقانية مدة ما أقامه عضوًا بالمجلس الحسبي، فحار الخديو وحنق، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه وجنح إلى توليته، ولم يكن خطر على بال أحد، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك؛ ليتمكن من رد السيد محمد توفيق البكري إلى النقابة؛ فتم له الأمر ورضي به النظار وأعيد البكري إلى النقابة مضافة إلى ما بيده من رئاسة الطرق الصوفية، وصدر الأمر في ٢ ذي الحجة بإقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم، فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محمودًا، والتمس إقامته شيخًا على المسجد الحسيني بدله كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيبًا له؛ فقبل ملتمسه وأجيبت رغبته.

وكان الخديو في ذلك الحين منحرفًا عن الشيخ محمد عبده مفتي مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه، فكان يظن أن المترجم يوافقه في معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه، فأخطأ ظنه؛ لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ووافقه في كل مشروع، واتحد به واندرج فيه حتى لم يكن له من الرئاسة غير رسومها والكلمة كلمة المفتي، وعوتب في ذلك من أحد المقربين فاعتذر بأن الرجل لا يريد غير الإصلاح فلا يرى وجهًا لمعارضته، فكان ذلك سببًا لميل الخديو عنه بعد

إقباله عليه، وضعف المفتي عن معاندة الخديو ولم يجد من الإنكليز المساعدة التي كان يرتكن عليها فعزم على نفض يده من الأزهر، ورأى المترجم أن الأمور لا تجري على مرغوبه فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣، فأقيل يوم السبت ١٢ منه، وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي واستقال أيضًا المفتي من مجلس الإدارة مرغمًا.

وأقام بعد ذلك المترجم بداره التي بجهة المناصرة بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين دينارًا مصريًا من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر، مواظبًا على كثرة تلاوة القرآن كعادته، مقبلًا على العبادة، حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣، وتوفاه الله في غروب يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة من تلك السنة فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت وصلي عليه بالمسجد الحسيني وطيف به حول المقام كوصيته، ثم دفن بقرافة المجاورين في بستان العلماء رحمه الله رحمة واسعة، وله من المؤلفات رسالة اسمها الأنوار الحسينية على رسالة المسلسل الأميرية، ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان، لولده السيد محمود تعليق عليها سماه: عروس العرفان، في الحث على ترك البدع وشوائب النقصان، على الرسالة الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان، وأعقب المترجم من الذكور ولدين كبيرهما السيد محمد الببلاوي سعى له والده حين انفصاله من نظارة دار الكتب، فجعل مغيرًا بها، ثم جعل وكيلًا لها وخطيبًا للمسجد الحسيني ونال درجة العالمية الثانية بالأزهر، ثم جعل بعد ذلك

نقيبًا للأشراف، والآخر السيد محمود، جعل شيخًا للمسجد الحسيني لما أقيم والده شيخًا للأزهر، ثم جعل بعد ذلك شيخًا للمسجد الزينبي.

obeikandl.com

ترجمة الشيخ زين المرصفي الشافعي

هو من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري، إلا أن الشيخ سليمًا أكبر منهما سنًّا، حضر إلى الأزهر وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس، ثم جعله الخديو إسماعيل معلمًا للعربية لولده الأمير حسين كامل باشا سلطان مصر الآن[1]، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألمَّ ببعض اللغات، وسافر مع الأمير إلى القسطنيطينية وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية؛ فاقتنى هناك كتبًا نفيسة غريبة عن أهل الأزهر، فصار ينقل منها في تآليفه نقولًا يُغرب بها عليهم، ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها، ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادي الأولى سنة ١٣٠٠، فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس، وأمر ناظر المعارف فسار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها وأناب عنه نائبًا حضرها، ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه، وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبَّنه ورثاه ببيتين من نظمه هما:

سقى الله من صوب الرضا أعظمًا ... بها ركن بيت العلم إذ دكه الحين

فلا غرو إن أضحت وجوه علومنا ... مشوهة فاليوم فارقها زين

رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) أي حين أُلِّف هذا الكتاب.

وفي مقدمة شرح أحمد بك الحسيني لكتاب الأم للإمام الشافعي الذي سماه بمرشد الأنام لبر أم الإمام ما نصه: «زين المرصفي كان عالمًا فاضلًا أخذ عن علماء وقته وجد واجتهد حتى صار من أكابر العلماء، وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو إسماعيل باشا، وكان يجيد اللغة الفرنساوية، وله كتابات في المنطق والحكمة. وكانت وفاته سنة ١٣٠٠». انتهى.

obeikandl.com

ترجمة الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري

أحمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب، ظريف الجملة والتفصيل، حلو النادرة والفكاهة، انجذبت إليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله. ولد بدمنهور ونشأ بها في ضنك ورقة حال، ولم يكن مشتغلًا بالأدب في أول أمره، ثم لازم الشيخ محمدًا الوكيل القباني أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج في النظم، وصحب أيضًا الشيخ حميده الدفراوي، وهو أديب لكنه لا يبلغ درجة الوكيل، ولم يحضر المترجم العلم على الشيخ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلًا ولا نهارًا فيكتب عنه كل ما يسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره، أخبرني ثقة أنه اجتمع به بدمنهور حوالي سنة ١٢٨٥ فرآه شابًا نيّف على العشرين مخفوض الجانب كثير التواضع، لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلًا.

ثم نظر المترجم في كتب الأدب ودواوين الفحول وبدأ ينظم الشعر؛ فكان يعبث بالبيت والبيتين، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات، إلا أنه كان قليل الإجادة كثير الخطأ واللحن، يتكلف التجنيس والتورية، وأحسن شعره ما نظمه في المجون وضمنه ألفاظ العيارين والشطار. وكان حضوره إلى القاهرة صحبة الوكيل فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية فأعجب بظرفه ومجونه، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة، وهي إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان، وفي الناس بقية، فكانوا

يهشون له ويتهادونه إذا حضر، ويراسلونه إذا غاب، فحسنت حاله قليلًا بما كان يناله من هباتهم. ثم اتصل بشاهين باشا كنج في طنطا لما كان مفتشًا على الأقاليم سنة ١٢٩٣، فانتظم في حلبة ندمائه واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغًا وافرًا اشترى به عقارًا ورمم داره بدمنهور، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله أفندي نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع في أثنائها بغيره من الكبراء وذوي الوجاهة، فيهدي إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه.

وكان على قلة إجادته في شعره مفتونًا به مبالغًا في تقريظه وقت إنشاده، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه، ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه في النظم، ولعمري لا أرى عبارة تفي بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستداعائه الحاضرين إلى استماعه، فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولًا بتقريظها ونبه الحاضرين إلى مواضع الإجادة منها، فإذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعًا خبيئة رأيهم فيه، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله في عمرهم، وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له فيه من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين، ثم يمضي في البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر، ويقول: سبحان المانح! كم ترك الأول للآخر! وأمثال هذه

الجمل التي اشتهرت عنه وصارت من لوازمه، ثم يمضي في الإنشاد، فإذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طربًا، ثم نظر للحاضرين وقال لهم: اسمعوا من الفتى العربي اللعوب، تُفّ على المتنبي وسحقًا له، أين له هذه السلاسة والسهولة؟ وهكذا حتى يتم القصيدة، فإن رأى من السامعين استحسانًا تمادى في غلوائه وأعجب وأطرب، وربما عارضه بعض من يحضره استجلابًا لطرائفه واستئناسًا بمحاورته، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحاضرة. بلغني أنه حضر مرة مجلسًا جمع لفيفًا من أهل الأدب فأنشدهم قصيدة من نظمه وبالغ في استحسانها كعادته، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها، فانتبذ له صديقنا العالم الفاضل، والشاعر المجيد الشيخ عبد الرحمن قُرّاعة مداعبًا، وقال له: أخطأت في بيت منها فأدخلت حرفًا على حرف وهو مما لا يجوزه النحاة، فأما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك، ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم، فنكس رأسه هنيهة، ثم نظر إليهم كالمتعجب وقال: يا ليت قومي يعلمون!!

وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبي البقاء الزرقاني، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه، ويعرض للشيخ ما يشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الإلحاح عليه بترك ما هو فيه والإصاخة إليه ويضايقه بذلك مضايقة شديدة، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه بادرة ينقلب لها المجلس ضحكًا، فكان يقول فيه: إن أبا الفرج عندي مشكلة من المشاكل، لا أدري أهو ثقيل أم ظريف؟

وكان أول اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان، وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله، ولم أكن لقيته من قبل، بل كنت أسمع به وأشتاق رؤيته، فرأيت عجبًا: رأيت شيخًا قصيرًا، دميم الوجه، قد ذهبت إحدى عينيه، عليه جبة واسعة الأكمام، وهو جالس في زاوية من المكان يملي على شخص حسن الحظ دالية من الطويل منصوبة الروي جعلها تهنئة للخديو محمد توفيق باشا بقدومه من الإسكندرية، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره ما نبهني للالتفات إليه، ثم مر ببيت قافيته لفظة (ومعضدا) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها تورية باسم الخليفة المعتضد بالله فلم يوافقوه، فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية حتى أضجره ورمى الدرج من يده، فغلبني الضحك واستظرفته وقصدت محادثته، فقلت: لعل سيدي الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبي الطيب التي يقول في مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

فسكت ثم نظر إليَّ شزرًا ولم يزدني على قوله: تف على المتنبي، فاستغربت في الضحك، وسألت عنه بعض الحاضرين، فخبرني به فكدت أطير سرورًا بلقائه، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الإجادة فيها وأستعيدها منه، فأبرقت أسرته وأقبل عليَّ أيما إقبال وأسمعني بعض مقطعات من شعره، فقلت له: أما كان الأولى بهذه اللآلئ أن تنظم في سمط؟ فقال: نعم يا سيدي، إني مهتم بذلك وسيكون ديوانًا مرقصًا، وامتد

بنا المجلس فرأيت منه ما لو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال، ثم فارقته وأنا أشوق الناس إليه، وكأني به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبي في اليتيمة، وأورد فصولًا للصاحب بن عباد في وصفهم.

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يُستملح منه ما يستثقل من غيره، فقد رووا عن بشار أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده، وعن البحتري أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجابًا بشعره، وقد عيبا بذلك وعد من سقطاتهما التي نعاها عليهما الناعون، بخلاف المترجم.

ومن غرائبه أنه كان معجبًا بكنيته، وكثيرًا ما كان يتدرج بها إلى الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين كأبي الفرج ابن الجوزي وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني وغيرهما، فلا يدع أحدًا من المتكنين بها إلا وينتسب إليه، تارة لهذا وتارة لذاك، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ووسع أكمامه، وسعى حتى جعلوه نقيبًا للأشراف بدمنهور.

حدثني صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكري أفندي المكي قال: لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب وأردت مداعبته فقلت: يا أبا الفرج، إن كنيتك تنبئ عن شرف عظيم، فلعلك من نسل أبي الفرج بن الجوزي، فقال: نعم يا سيدي صدقت وأصابت فراستك. ثم لقيته بعد ذلك بأيام وقد نسي ما دار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له: إجادتك في الشعر مع هذه الكنية تدلني على أنك من نسل أبي الفرج الببغاء، فقال: أي نعم، وهو الواقع. اهـ. ولا خلاف في أنه كان يعلم قصد محدثه في أمر نسبه،

إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد، حتى مع أخص الناس به، ويغضب ممن ينكر عليه فيستظرف منه.

وادعى مرة أنه نال نصيبًا وافرًا من اللغة بحيث أصبحت لا يشذ عنه شيء من مفرداتها، وتمادى في هذه الدعوى وتبجح بها في المجالس، وتصدر للإجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه فتوالت الأسئلة وهو يجيب عنها خابطًا خبط عشواء لا يبالي بمن يحتج عليه بكتب اللغة، وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظًا يسألونه عنها فيخترع لها معاني يجيب بها، وربما أحال تخرصًا على كتب لغوية يعينها، ونظم له بعضهم بيتًا كبيت الخنفشار، وسأله عن معناه في جمع كبير من الأدباء وهو:

وبِخزْنـقِ الأقيـال عائـت فالتثـت ورقـاء تعتـرض الأكـام بـشيظم

فقال: نعم! هذا بيت لعنترة، ذكره له صاحب الأغاني وهو يصف به حمامة، والخرنق شيء يشبه نسج العنكبوت وليس به، يكون بين أغصان الأشجار، فيقول: إنَّ هذه الحمامة عاثت بين الأقيال؛ أي الأشجار الكبيرة فالتثت قدماها بالخرنق؛ أي اشتبكت به، وأما الشيظم ... وأراد أن يفسره فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس.

وبالجملة فقد كان خفيف الروح، محبَّبًا إلى القلوب، أديبًا ظريفًا، حاضر الجواب، حلو النادرة، وكانت وفاته فجأة بدمنهور في ثاني ليلة من شهر ربيع الثاني سنة ١٣١٠ بعد أن صلى العشاء، وكان آخر قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون، فشقَّ نعيه على من عرفه وشيع جنازته الألوف، تغمده الله برحمته.

ترجمة حسن أفندي عبد الباسط الحُوي

كان خِلاسي اللون يشبه الحبش، وبوجهه أثر جدري، وكان أديبًا شاعرًا هجَّاء، خبيث اللسان مجيدًا؛ إلا أنه مقل، استخدم بالإسكندرية فكان رئيس قلم في الضبطية حوالي سنة ١٢٨٥ وبقي بها إلى سنة ١٢٩٠، وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحي باشا الشاعر المشهور، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء، فيسمرون معًا ويحيون الليالي بالمذاكرة وإنشاد الشعر، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِرْبَد، وألا يقبلوا به أحدًا إلا إذا ارتضوا به جميعًا، فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء المربد، وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر، ويعينون عدد الأبيات والوقت الذي يجب نظمها فيه، فكان أحدهم إذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها، أو لها معنى لا يوافق السياق، وتمم بها البيت، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية.

ثم تنقلت الحال بالمترجم، فاستخدم معاونًا بمديرية الشرقية، ثم فصل فضاق به العيش وفتح حانوتًا بالزقازيق للصيدلة القديمة المسماة في العرف الآن بالعطارة، وكان أمره بها عجبًا، فإنه اقتنى كتبًا من مفردات الطب وقانون ابن سينا، وصار إذا طلب منه أحدهم بيع عقار من العقاقير، سأله عن سبب حاجته إليه وقام إلى تلك الكتب، فاستخرج له منها مزاياه

وما يداوي به من العلل، وبقي مدة على ذلك حتى توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠.

ومن شعره يمدح محمدًا فتح الباب أفندي كبير كتاب ديوان البحر:

رأيت العلا ترتاد بعلا لنفسها ... وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل
فقمنا سراعًا قاصدين لخدرها ... عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل
فلما رأتنا واقفين ببابها ... أشارت لفتح الباب منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه طرفة من الطرف، وأعجوبة من العجائب: في حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب، رآه مرة بعضهم وهو مسافر إلى الزقازيق في القطار ومعه جراب يحمله بيده، فقال له مداعبًا: أظن هذا جراب الحاوي؛ أي المشعبذ. فقال: لا يا سيدي، هذا جراب الحُوَي!

ترجمة الشيخ مصطفى السفطي

مصطفى السفطي ابن مصطفى الفاكهاني السفطي ابن على السفطي ابن أحمد شلبي، نسبة إلى سفط القطايا من عمل ....[1]، ولد بمصر القاهرة حوالي سنة ١٢٥٠، وأرسل إلى المكتب في السابعة من سنيه، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم، واشتغل بتجويده في الأزهر، ثم شرع في طلب العلم على شيوخ عصره، فقرأ الكفراوي على أحد العلماء المبتدئين في التدريس، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى، ولما

(١) بياض في الأصل.

أعيا عليه أمره، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعادة قراءته، ولكنه لم يستفد شيئًا. وكان بجوار داره دار السيد أحمد البقلي أحد المدرسين بالمدارس، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه، فأشار عليه بشراء متن الأجرومية وأمره بحفظه، ثم شرع في إعرابه له على الطريقة الأزهرية، فلم يستفد شيئًا أيضًا، وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهوري فأمره بترك طلب النحو كلية حتى ينسى ما علق بذهنه منه، ففعل واقتصر على الفقه، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجوري، وكان يتفهمه بخلاف النحو، فمالت نفسه إليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتُّوح البجيرمي، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن القباني أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور، وكان يطالعه لإخوانه المبتدئين.

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهوري ومعه متن الأجرومية فقط، وصار الشيخ يقول: له اقرأ هذه الجملة ثم تفهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشراح، فيفعل، فتارة كان يخطئ وتارة يصيب، وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة، وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلي به، وأخبره أن عند على أفندي العروسي شرحًا للرملي على الأجرومية، فاستعاراه منه وقرآه معًا، فكانا يفهمان ما فيه فهمًا جيدًا. ثم اجتمع المترجم بإنسان كفيف البصر اسمه الشيخ علي الفيومي، له باع في العربية، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية،

والقطر، وابن عقيل، ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبيني بالأزهر، وقرأ الخطيب على الشيخ علي الأشموني عم الشيخ محمد الأشموني الشهير، وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المبلط، وهو آخر حضوره في الفقه، ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر، والعروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعة بك: كقدري باشا وإبراهيم بك مرزوق، وبعد ذلك انتخب مدرسًا بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ في أول نظارة رياض باشا على المعارف، وكانوا إذ ذاك يقرأون بها في الأنموذج للزمخشري في النجو، ثم كُلف بتأليف رسالة في الصرف ففعل، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث سنوات، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل في البلاغة والصرف بتوسع أبسط من الرسالة الأولى، وقرأ بها سنوات، ثم أمر بقراءة العروض والقوافي في المدارس، فاستحسن رسالة أبي الجيش وأقرأها، ثم وضع رسالة في العروض والقوافي أتم بها ما أراده أبو الجيش، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس، ثم كلف بوضع رسالة في علم الرسم، فوضع رسالته «عنوان النجابة في قواعد الكتابة» وقرئت بالمدارس.

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة (بالمبتديان)، وكان ذلك سنة ١٣٠٦، فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره في المترادفات، ثم نقل إلى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات، فبقي بها سنتين ألف فيها رسالته «محاسن الأعمال»، ولما عرضت على المجلس العالي بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جدًّا وقالوا: الأولى أن تكون بيد المعلمات

لا بيد المتعلمات، ثم أخذت قوته في الوهن، وبصره في الضعف لكبر السن، فعرض استقالته على النظار مبينًا السبب، فأحيل على الكشف الطبي، ثم أحيل على المعاش، وله من التآليف غير ما تقدم: رسالة في الصرف اسمها «قرّة الطرف» أوسع من المتقدمة، وأخرى في النحو وهي «منحة الوهاب في قواعد الإعراب»، وهي نظم. ومن شعره:

الحمد لله لا فقر يضر ولا ... غنى يغر فلا حزن ولا فرح
وليس لي مطمع في الناس يلجئني ... للذم والمدح إن ضنوا وإن سمحوا
وأسأل الله حاجاتي فيمنحني ... من فضله فوق ما أهوى وأقترح

وله:

قد يسر الله أسباب المعاش لنا ... بالعقل والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من ... يشاء بالفضل لا بالسعي والهمم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمدًا ... على الذي أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا ... يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق، حسن المعاشرة، اعتكف في داره بعد فصله من المدارس على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع بعض من يسمر معهم من إخوانه وأخلائه، أو استقلالًا بنفسه، وكان في مبتدأ أمره مولعًا بالسماع، وتشبث بتعلم الموسيقى فلازم الشيخ محمدًا شهاب الدين الشاعر المشهور، وكان متقنًا لها، فأخذها عنه وأتقنها، ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية، ومعرفة بجيد الشعر ونقده. ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكبر وضعف عن

المشي، فلزم داره لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة في أقرب مسجد إليه، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة، وتوفاه الله إلى رحمته في يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧.

obeikandl.com

ترجمة محمد أفندي أكمل

هو محمد أكمل ابن عبد الغني بك فكري ابن لطف الله بن حسين، الشاعر الأديب الظريف، ولد بالقاهرة ونشأ بها واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه، ثم أدخله في الديوان الخديوي للتعلم كتلميذ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان مدة الخديو إسماعيل باشا، فجود الخط به وألم باللغة التركية، وكانت له حدبة بظهره شوهت خَلقه، ورأى والده أن لا مطمع في استخدامه بمنصب لائق، لحدبته وقصر قامته، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء، فلازم الطلب به وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصوري، والشيخ محمد البجيرمي، وكان أحدب مثله، وكثيرًا ما كان يقعده بجواره في حلقة الدرس، ثم انقطع عن الطلب ولازم والده، وكان والده جمَّاعة للكتب، مغاليًا في اقتنائها شراء واستنساخًا، ينفق عليها جل ما يصل ليده، ويحيي الليالي في مقابلة ما يستنسخه منها وتصحيحه وضبطه، فكان المترجم يعاونه في ذلك، واطلع بهذا السبب على كثير من الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية، وعاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء وتردد عليهم واستفاد منهم، وعرف مدة طلبة بالأزهر كثيرًا من أدبائه وشعرائه المجيدين كالشيخ عبد الرحمن قراعة، والشيخ أحمد مفتاح، وحفني بك ناصف وغيرهم، فاستفاد منهم أيضًا، ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التنذير وسرعة الجواب وخفة الروح، وكان كثيرًا ما يجعل محور تنديره دائرًا على حدبته، فيأتي

بما يضحك الثكلى، بل كان لا يأنف من ذكرها في شعره، كقوله من زجل في الوباء الذي حلَّ بمصر أوائل سنة ١٣٢٠ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور، وترويع ربات الخدور:

شَاعِرِ ونَاثِرِ زجَّالْ عَالْ	فن الأدَبْ فيدُه[1] لِعْبَةْ
لطِيفْ زكِي وفَهْمُهْ سَيَّالْ	ورِقَّتُهْ مِنَ اللهْ وَهْبَةْ
مُخْلِصْ لإخْوانُه ومَيَّالْ	نَادرةْ زَمَانُهْ ولُه حَدْبَةْ
مافِيْهش عيب ظَاهرْ معروفْ	قَصِيرْ ولكن فِيهْ أَقْصَرْ
واللي يعيش يَامَا بِيْشُوفْ	واللي بِيمْشِي بِشُوف أَكْتَرْ

ومن ولوعه بحدبته شرع في جمع كتاب في نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار، وتراجم مشهوريهم، أخبرني أنه جمع منه جزءًا، إلا أنه لم يتمه.

ونقل والده مدة محمد توفيق باشا الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضيًا، وتوفي يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ وخلف له ولإخوته ضيعة بالصعيد أصاب المترجم منها ستون (فدانًا) باعها وبدد ثمنها بالإسراف حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف بمرتب قليل دون الكفاف، وعاش في ضيق ومضض بعد ما تعوده من السعة والرفاهية، وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ في كل عيد واحتفال، وحل وترحال، وينشرها في صحف الأخبار رجاء أن تبلغه فيأخذ بيده، فلم يستفد شيئًا وراح تغز له في الريح، وكان قصر شعره في أواخر عمره على هذه

(١) بهامش الأصل: أي في يده.

obeikandl.com

التواريخ فنظم منها الغث والسمين. وكنا إذا قرب عيد أو سفر أو قدوم للخديو لا ننتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية، فيصير هذا ديدنه في غدوه ورواحه، وقيامه وقعوده، حتى يمن الله عليه بشيءٍ يرتضيه.

وترك له والده غير الضيعة دارًا بسوق الزلط بيعت أيضًا، وترك خزانة كتب كبيرة قلَّ أن تضارعها خزانة في نفائس الكتب ونوادر الأسفار، وهي التي أفني عمره وماله في جمعها، وأتعب نفسه في تصحيحها وضبطها. وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها، فوق ما كان يتكلفه من السعي في البحث عنها في الخزائن المهجورة وعند الوراقين، واتخذ له في داره مصنعًا للتجليد، واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه، وكان هو وعبد الحميد بك نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان في ذلك ويتسابقان. أخبرني المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجرًا من الوراقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد بك نافع بجلبها له وبينها ديوان البحتري، وكان إذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف في مصر إلا باسمه، فأسرع إليه وبذل له مالًا فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يومًا وليلة فقط يطالع فيه، فرضي وأعاره إياه، فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده وأحضر في الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت، ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد بك وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به، فقال له: خفض عليك يا أخي، هذا شيء أكلنا عليه وشربنا حتى مججناه، ثم

أخرج له نسخة الديوان من الخزانة. وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها، فلم يسعه إلا أن قام في الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل، فأيقظه من نومه وساومه في الرسالة بقيمة فوق قيمتها، ولم يمهله للصباح بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ففتحه ليلًا وأخرجها له ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده. فلما مات عرض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر، وكان من مستعربي الإفرنج المولعين بجمع الكتب العربية، وأدركت أنا أواخرها فاقتنيت منها بضعة عشر كتابًا، منها ما هو بخط عبد الغني بك نفسه، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التي كان يقابلها بها.

وكان أول التقائي بالمترجم في دار ابن أختي محمود توفيق بك، وهي إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر، فدنوت منه وكنت صغيرًا في أول الطلب، وقد تعذر علي فهم باب أفعل التفضيل، وأجهدت نفسي في درسين متواليين على تفهمه، فلم يفتح عليَّ بشيء فيه، فسألته عنه فأوضحه لي بعبارة سهلت علي فهمه، فكان بعد ذلك كثيرًا ما يقول لي ممازحًا: إذا ذكرت شيوخك فاذكرني معهم ولا تنسني. ثم تأهل ببنت حنفي بك، وكان لأسرتها نوع اتصال بنا، فاتصلت المودة

بيني وبينه بهذا السبب، وازدادت ملازمته لي لما سكن بجوارنا، فكان يزورني عصر كل يوم ويبقى حتى نسمر معًا ثم ينصرف، فتارة كنا نحيي الليالي بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية، أو بمطالعة بعض الكتب، وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه، وكان لا يمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها، ويقول: هذا شيء دربني عليه والدي وعودني إياه من الصغر. وأشار عليَّ مرة أستاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطي أن أطالع أمالي أبي علي القالي مطالعة إمعان وتدبر، ولم تكن طبعت بعد، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها، وأخبرت المترجم أنني سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفي ما بهذه الكراريس، فغاب عني ثلاثة أيام ثم حضر ومعه زجل، ينحي فيه على الأستاذ وعلى أبي علي القالي اللذين تسببا في انقطاعي عن الإخوان، ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا:

المذهب

مشتاق قوي ليدي السحنة ... دي مودتك حيطي ميطي
أبو علي كان لك محنة ... الله يجازي الشنقيطي

(دور)

يا سيِّد أحمد يا تيمور ... يا للي منعنا من أنسك
هو ودادك من بنور ... حتى كسرته من نفسك
أهديك سلام يشحن وابور ... يقطع محطات على حسك
هو الكتاب ده م الجنة ... ولا كلام المجريطي

أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــــازي الـــــشنقيطي

(دور)

بكـــره يجينـــا الـــشيخ مفتـــاح يحلـــى الـــسهر فـــي القمـــارى
نفـــضل نـــدردش للأصـــباح والـــشيخ بروحـــه مـــوش داري
عبـــيط خفيـــف عـــالم فـــلاح يجـــوز شـــوارب هـــواري
أوقـــات كـــده يبقـــى زنـــة وأوقـــات تـــشوفه رهريطـــي
أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــــازي الـــــشنقيطي

(دور)

إذا مـــشى تلقـــاه يجـــري راخـــي تملـــي كيعانـــه
م الكهربـــا تـــشوفه دغـــري رمـــح وطرطـــق إودانـــه
وإذا اشـــترى حاجـــه يـــوري جميـــع مـــا جابـــه لإخوانـــه
وتبقـــى زيطـــه لهـــا رنـــه وأحـــوال معيـــشته رطريطـــي
أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــــازي الـــــشنقيطي

(دور)

عبـــد الملـــك راجـــل زنـــديق وابنـــه صـــبح منـــه مخلـــول
والبـــابي لآخـــر بـــالتحقيق جاهـــل ثقيـــل دينـــه محلـــول
ومذهبـــه مـــذهب تلفيـــق كلـــه خـــراف مـــن غيـــر معقـــول
لا فـــرض عنـــده ولا ســـنه ده ديـــن إبـــاحي شـــليطي
أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــــازي الـــــشنقيطي

(دور)

أمـــا القـــدوري بنياتـــه أفغـــاني لكـــن يتدحـــدح
وركبتـــه ودقنـــه وذاتـــه علـــى حمـــاره يتمـــرجح
غريـــب فـــي شـــكله وصـــفاته نـــادر فـــي بابـــه مـــتلحلح
يـــدي ملامـــح للورنـــه أو الزغاليـــل الغيطـــي
أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــازي الـــشنقيطي

(دور)

أمـــا الـــدميري القلعـــاوي تـــيس تركـــي أبـــيض وبلحيـــه
وأبـــو فـــصاده الـــشناوي أعـــرج ملـــوي كالحيـــة
بـــدقن بيـــضا حلفـــاوي وزعيـــق يبطـــل علـــى مِيـــه
غبـــي وســـخ كالـــشيخ مَنـــه فكـــره قـــذارة مخيطـــي
أبـــو علـــي كـــان لـــك محنـــه الله يجـــازي الـــشنقيطي

(دور)

أهـــل الأدب مـــاتوا بحـــسره م اللـــي شـــفوه فـــي دي الأيـــام
النـــاس بقـــت بيـــنهم نفـــره والمـــسلمين صـــارت أخـــصام
وكـــل يـــوم تلقـــى نـــشره تمـــلا قلـــوب النـــاس أوهـــام
بيقفـــشولهم علـــى لحنـــه بـــالوهم عايـــشين ســـلبيطي
أبـــو علـــي كـــان لـــه محنـــه الله يجـــازي الـــشنقيطي

دور المديح

حـــسن الـــتخلص بـــالمحمود طـــه النبـــي الهـــادي الأمـــي

أفضل رسول كان به موعود هدى اليهودي والذمي
وفاز مِن أسلم بالمقصود نال الشرف من به سمي
باقي الملل صارت كهنه كل كتبها خلبيطي
أبو علي كان له محنه الله يجازي الشنقيطي

دور الاستغفار

يا رب أنا مذنب عاصي محتاج لعفوك والغفران
من العذاب أرجو خلاصي ودخولي في جنة عدنان
أنا نحيف موش جعاصي مليس تجلد على النيران
عفو الكريم أعظم منّه على عبيده الحفليطي
أبو علي كان لك محنه الله يجازي الشنقيطي

دور الختام

ياهل الأدب راجي منكم غض العيون عن زلاتي
فن الزجل يروى عنكم أما أنا مش أدباتي
الله يخلِّي أفضالكم وأنول سعودي لمماتي
وابقى كده ف طنَّه وشنَّه وافرح وترقع زَغَريطي
أبو علي كان لك محنه الله يجازي الشنقيطي

انتهى.

وإنما يظهر حسن هذا الزجل لمن يعرف المذكورين فيه فيطبق ما ذكر عنهم على هيئاتهم وأحوالهم، ومراده بالقدوري والدميري شخصان كان

يلقبهما بهذين اللقبين. والسبب في ذلك أني أطلعته على رسالة عندي جمعها الشيخ أحمد الفحماوي صاحب الخط الحسن، المشهور بكتابة لزوم ما يلزم للمعري، وسماها (بنات أفكار وعرائس أبكار) في ألقاب أهل العصر، ذكر بها كنى وألقابًا وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع، وإبراهيم أفندي طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم، أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به، أو شيئًا يغلب على أخلاقه وأحواله، كتلقيبهما مصطفى أفندي المنعوت بكامل بالعكوك؛ لأنه كان قصيرًا جدًّا معوج القدمين، وتلقيهما الشيخ محمد الرافعي الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملا مسكين؛ لأنه كان نحيفًا وبقوامه بعض احديداب يرى كأنه تواضع وانكسار، وتلقيهما عبد الغني بك أبا المترجم بالأخطل؛ لأنه كان ضخم الجسم كبير الهامة. فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنونًا وشرع في وضع رسالة تماثلها في فضلاء عصره، وسألني مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان فامتنعت خشية اللوم، فانفرد هو بتأليفها وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد، فمن ذلك تلقيبه للعالم الفاضل علي رفاعة باشا ابن رفاعة بك المشهور، بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى أفندي الأفغاني، بالقدوري لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهًا له بالقدر من الفخار، والقدوري اسم عالم من الحنفية مشهور. وكان الشيخ محمد الحفني المهدي ابن أخي مفتي مصر الشيخ العباسي المهدي ولعًا بذم الناس منقبًا عن معايبهم، لهجًا بهم في المجالس، لم يسلم منه أحد حتى عمه،

واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه وتحاموا عن الاجتماع به، فلقبه بابن هِرمة، وهي كلمة سب عند العامة، فقلت له: هذا لا يستقيم لك؛ لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله. فتأفف وقال: لا أجد له لقبًا ينطبق عليه غير هذا فدعني من شنقيطيتك. ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه، ففكر وقال: أحسن لقب ينزل علي ابن قتيبة، ثم تركه وتلقب بالمقوقس. وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم، فإنه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ أحمد مفتاح لسلامة طويته، بالأبله البغدادي، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما. وغضب منه صاحب آخر كان قصيرًا ممتلئًا يتدحدح في مشيته كما يتدحدح البط؛ لأنه لقبه بابن بطوطة، فأخفى الرسالة لهذا السبب، وطوي ذكرها.

وكان رحمه الله مجيدًا في الزجل، متقنًا لصياغة الأدوار التي يتغنى بها، وأكثر ما كان متداولًا منها بين المغنيين في عصره كان من نظمه، وأما شعره فالإجادة فيه قليلة إلا ما ضمته النكت والتنديرات العامية، فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية في صاحبه علي رفاعة باشا:

جزعت وللحرِّ أن يجزعا ... وودَّعت صبري إذ ودَّعا
وجادت عيوني على بخلها ... وحُق لها اليوم أن تدمعا
وروَّع قلبي النوى بعد ما ... أمنت ومثلي كم رُوعا
لحا الله يومًا أشاعوا به ... وقالوا أمير العلا شيّعا
فما كان أصعب تأبينه ... وما كان أسوأه موقعا
وما كان حقي البكاء ولكن ... فزعت ولا بدع أن أفزعا

تجرعت من هوله كل صاب وغيري من الناس كم جرعا
وما دار في خلدي أنني أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب فما كان أضيع عهدًا رعى
يقول النعي: عليَّ قضى ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيدًا صيته طائر حوى الفضل في شخصه أجمعا
فدكت رواسي الدنى بعده وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبي أسى ولا تطلبي بعده مصقعا
وقل للكتابة لا تحفلي بمن يتبجَّح في المدعى
وقل للعلوم فقدت أميرًا مضى تاركًا فضله مشرعا

وقال مورِّيًا باسم الطبيب سعد بك سامح:

يا سعد ما لك معرضًا عني وقلبي فيك طامح
إني أتيتك قائلًا أنا تائب يا سعد سامح

وقال مورِّيًا باسم محمد ثابت:

إن كنت في ريب بصدق محبتي وسمعت عني ما تقوَّل شامت
فاعلم فديتك دائمًا أني على عهد المحبَّة يا محمد ثابتُ

ولما مرضت شقيقتي السيدة عائشة التيمورية وأحست بدنو الأجل، نظمت في مرضها أبياتًا لتكتب على قبرها، وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها، وهي:

قد كنت عائشة فنوديت ارجعي للقبر مأوى كل حيٍّ فان

فأتيت صفر الكف عن مرضاته ومقرة بالعجز والعصيان
جرِّدت من ثوب الهدى لكنَّ لي تاجًا من الإسلام والإيمان
ونزلته مستشفعًا بمحمد وتوسُّلي عفوًا من الرحمن
أصبحت ممن زار لحديَ راجيًا خير الدعا وتلاوة القرآن

لكم البقا إخوان دينيَ أرخوا.

فنظم المترجم التاريخ بقوله: (قبر لعائشة سما بجنان).

وله غير ذلك مما ذهب عن الذهن الآن، ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتي فيها أحيانًا بغرائب في إبراز المقصود بدون حشو، كقوله في تاريخ ولادة ولده عبد الغني: (عبد الغني ابن أكمل).

وكانت وفاته فجأة قبل ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٢١، ودفن بمقابر باب النصر، رحمه الله تعالى.

ولم يشتهر ولده عبد الغني بك بعلم، بل كان بارعًا في الكتابة التركية والعربية فقط، وكان يقرض الشعر أحيانًا، فمن ذلك قوله هاجيًا الشيخ مصطفى قشيشة مدعيًا أنه لم يرد إليه كتبًا استعارها منه، وكان الرجل من الفضلاء، وكانت له زريبة لتربية البقر يكتسب منها ببيع اللبن، فقال فيه:

شيخ سوء بفعله المنكور أنسى معنا بحلمه المشهور
عامل الناس بازدياد دهاء زاد في الوقع نغمة الطنبور
واستمال البسيط من لم يطالع من خداع القصير في المسطور
أشعل الذهن في اللآمة حتى أورث الصهر أسوأ المقدور

قل ما يلحظ الصحيح بعين ... غير خلط المنظوم بالمنثور
صار دهرًا بصحبتي مستفيدًا ... وفر مال من كنزي الموفور
واقتداء بحبك الشيء يعمى ... كان ما صار من خطا المشعور
وتمادى الضلال بضع سنين ... نال منها ما ليس بالمحصور
واحتدام الخصام نكران كتب ... شذ فيها عن نهجها المبرور
وانثني الآن منكرًا مستغيبًا ... كافرًا نعمتي لدى الجمهور
جعل الله عسره مستديمًا ... وثواه الإله في التنور

وقال فيه أيضًا:

تشرب الخمر للتداوي احتيالًا ... لا شفى الله منك للجسم علّه
دمت في منقع الزريبة روثًا ... بك يشتم في الخياشيم جلّه

والجلة عند العامة هي روث البقر. ولا يخفى ما في القصيدة من الضرورات كقوله: أنسى ولا يستقيم الوزن إلا بحذف الياء، وقوله: وتمادى الضلال فعداه وهو لازم. وغير ذلك. فلما اطلع الشيخ مصطفى على القصيدة والبيتين طلب من صديقنا الشيخ أحمد مفتاح أن يجيبه على لسانه، فنظم قصيدة وبيتين من البحر والقافية في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٠٤ فقال:

لهوى النفس في اقتحام الأمور ... حكمة تستفز لب الخبير
كل داء يبرا ولو بعد حين ... غير داء الهوى وداء الغرور
قف قليلًا وأمعن الفكر فيما ... أظهرته الغيوب كل الظهور
ظن بعض الرعاع والظن إثم ... بورد النفس أسوأ المقدور

أن سيفي لدى الهجاء كهام ... وقناتي تلين في كف زور
فتعامى ومج من فيه روثًا ... وقبيح بالمرء خبث الضمير

يشير بهذا البيت إلى قول عبد الغني بك: دمت في منقع... إلخ.

عشت معه على الضغائن سرًا ... لا أرى منه غير نذل فخور
فانتقى لي بعد انتقالي سطورًا ... هو أولى بلفظها المهجور
ظنها الشعر ضلة ليس يدري ... أن دون القريض خوض البحور
إن عبد الغني عبد جهول ... ليس يدري قبيله من دبير
فيه ما شئت قله غير مبال ... من ضلال وخدعة وفجور
عرفته الإخوان بالخفض حتى ... ميزته بالخفض والتنكير
فاتقوه وأخبث الناس طرًا ... رجل تتقيه خوف الشرور
ورماني زورًا بنكران كتب ... وبكسبي من وفره الموفور
أي وفر أفاد أم أي كتب تبتغي ... من لدن لئيم حقير
حمل الكتب لا لعلم ولكن ... لترى الناس أنه كالحمير
وانتمى للثقات في العلم حتى ... أوهم الناس أنه ابن كثير
يا عديم الذمام في كل أمر ... وقليل الرجاء للمستجير
هاك مني عديمة المثل أنحت ... بمساو على عديم النظير

وقال:

إن عبد الغني عبد فقير ... لم ير الناس في السفاهة مثله
جمع الدهر فيه ضدين حتى ... أبرزته العيون للخلق مُثْله

رحم الله الجميع، وتغمدهم بعفوه وغفرانه.